محاضرات النص الشعري المغاربي

السداسي السادس، السنة الثالثة ل م د 1 الأستاذ عمار قرايري

المحاضرة الأولى:

مدخل إلى دراسة الشعر المغاربي

إن المتتبع للتجربة الشعرية المغاربية المعاصرة في الثمانينيات يلحظ ذلك التطور الفني الكبير الذي بلغه النص الشعري المغاربي في هذه الفترة، وقد بدأت هذه التجربة تخطو خطواتها الأولى التي كانت مترددة ومحتشمة، ثم أخذت في التبلور في السبعينيات لتشهد مرحلة التطور المبهر مع مطلع الثمانينيات. وهذه الدراسة تحاول الإنصات للشعر المغاربي المعاصر في صلته بالتجربة الصوفية وهي بذلك تقف بين نصين؛ النص الصوفي القديم، والنص الشعري المغاربي المعاصر، وتحاول الإجابة عن الأسئلة التي تمخضت عن هذا اللقاء، وأسست منذ الثمانينيات لرحلة وَسمت الشعر المغاربي بسمات جديدة مغايرة لما كان سائدا ومألوفا.

لم يكن الشعر المغاربي الحديث استثناء. فلقد بدأ متأثرا بالشعر العربي في المشرق. فنهل منه إلى حد الثمالة، فاقتفى خطاه، منتهجا طرائق إيجابياته وسلبياته. فلم يظهر في سلّم الإبداع إلا من أحسن التقليد، وأجاد التكرار والترديد، فالكل انسلَّ من عباءة السياب والبياتي ونازك الملائكة، وعبد الصبور وحجازي وأدونيس... فأصبح نتاج هؤلاء الرواد هو المقياس والنموذج لكل كتابة شعرية خلال عقدي الستينات والسبعينيات، وقد يكون هذا أمرا بديهيا طبيعيا ... غير أنه في غياب النقد، الذي ظل – ولوقت طويل – ينتظر بتقاعس تراكم الإنتاج، ووضوح الرؤية، وبيان النوايا، ظهرت أعمال (شعرية) متهافتة منزعجة ومزعجة، لا تمت للشعر بصلة، اللهم عبارة:(ديوان شعر) على الغلاف!!

وتسلق منبر الإلقاء (شعراء) وما هم بالشعراء! ! لا يملكون إلا نبرة الإلقاء تقليدا لدرويش أوأدونيس أو نزار...) فغرق الشعر والشاعر في المغرب العربي في متعة التقليد ولذة الاجترار. فلم يتميز من ذلك إلا طائفة قليلة، استطاعت أن تقلد ولكن بذكاء واحتراس ونبوغ ...لأنها عمّقت دراستها في مجال الشعر والإبداع والنقد والتحليل. ولكن لا يمكن

أبدا أن نجعل من هذا الاستثناء وسيلة تشفع للشعر المغاربي رتابة مساره، وفتور عطائه، وانكفائه ونمطيته لأن الرواد الذين تميزوا بعطائهم يعدون على رؤوس الأصابع.

فلقد مرَّ عقد الستينيات ولم يخلف لنا من الأسماء إلا أحمد المجاطي، ومحمد خمار ثم محمد السرغيني وعبد الكريم الطبال. (وفي اعتقادي أن جيل الرواد في المغرب واكب تحولات سياسية واجتماعية خطيرة واستطاع كل شاعر من هؤلاء بحسب قدرته وكفاءته وموهبته الخاصة أن يبلور هذه التحولات ويعكسها في شعره، لقد استطاع المجاطي إلى حد ما أن يعكس تجربة التطور التاريخي والاجتماعي والسياسي في المغرب بحساسية مفرطة، وبرهافة كبيرة، وبطبيعة الحال من موقع سياسي وفكري محدود، وكذلك فعل خمار والسرغيني إلى حد ما. وإن كان السرغيني يسبح في صوفية وفي تجريد مغرق.

على العكس، شعراء السبعينيات لم يستطيعوا أن يتعمَّقوا التجارب الاجتماعية بل إن محاولة رصدهم لهذه التجارب بقيت في مستوى الشعارات، والفرق كبير بين الشعر والتغني بالشعارات)

يقول الأديب المغربي عبد الله كنون:"...وقد كثر عتب الأدباء في المغرب على إخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم، وإنكار كثير منهم لكثير من مزاياهم، ولكن أعظم اللوم في هذا مردود على أولئك الذين ضيعوا أنفسهم، وأهملوا ماضيهم وحاضرهم، حتى أوقعوا الغير في الجهل بهم والتقوّل عليهم)

في حين يرى زكي مبارك أمرا آخر، وينفي عن الأدباء المغاربة ما لامهم عليه عبد الله كنون، إذ يقول:" وكما خلا العقد الفريد من أدب الأندلس، خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب، أيكون معنى هذا أن الأندلسيين والمغاربة يستخفون بآثارهم الأدبية؟ ..ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق، فكانوا يجدون في نقل ما أثر عن أهل المشرق من القصائد، والرسائل، والحكم، والأمثال، وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول، الذي اعتمدت عليه في أكثر الشواهد المشرقية، مع أنه لرجل تونسي من أهل القيروان"، لكن قد سجلت القصيدة المغربية قفزة نوعية من حيث تشكيلها ورؤيتها عبر اختيار أشكال تعبيرية تراعي التحولات الجديدة والطارئة التي تمس في العمق حركية الوجود الإنساني وتؤثر فيه بشكل من الأشكال.

يعتبر هذا التطور الفني امتدادا طبيعيا وجدليا مع الأشكال السابقة وتعايشا معها، فهو لم يلغها أو يستثنها وإنما أضاف إليها قيما فنية وتعبيرية جديدة وتتوازى معها بأسلوب مغاير. كما أن الشكل الفني القديم بدوره آمن بالاختلاف وسار مع الجديد مسالما مما فسح المجال أمام حرية التنقل بين هذه الأشكال واختيار الأنسب للحظات المخاض الشعري.

وعليه فأن تنوع المرجعية التي ينطلق منها الشعر العربي المغاربي عموما هي المرجعية الشعرية العربية وكذا العالمية؛ لأن الانفتاح على الأدب الغربي عموما والفرنسي على وجه الخصوص قد مكن هذا الشعر من التجديد على مستوى المضامين والأشكال الفنية بالرغم من احتفاظ فريق كبير من مبدعيه بالبنية القديمة للقصيدة الكلاسيكية العربية وتلقيحها بنفس جديد دلاليا فقط ومن هؤلاء عبد الملك البلغيتي ومحمد بن ابراهيم (شاعر الحمراء) وأبو بكر اللمتوني وعبد الكريم بن ثابت ومحمد الحلوي...

ولا بد من الإشارة إلى أن الشعر المغاربي لم يكتف بالتأثر بالشعر الغربي بل واكب حركة التجديد التي حمل لواءها كل من أحمد باكثير ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب بالمشرق، وقد تميز في هذا الصدد شعراء (كانوا بمثابة صدى لهذه الأصوات المتعددة بالشرق) أمثال مصطفى المعداوي الذي يعتبر رائد الشعر المغربي الحديث لما امتاز به من وعي سياسي وثقافي جعله يساهم في إرساء المشروع الشعري الحديث بالمغرب مع أحمد المجاطي المعداوي وعبد الله راجع ومحمد خير الدين؛ هؤلاء الذين تبنوا الدعوة إلى الالتزام والثقافة الهادفة والمقاومة لكل أنواع الزيف والميوعة، وذلك بهدف تحقيق كيان شعري مستقل يحمل قيما إنسانية وجمالية دون أن ينفصل عن واقعه ومحيطه الاجتماعي والجغرافي.

وقد ساهم هذا التفاعل في تسجيل طفرة نوعية في تطور القصيدة إذ أنه في ظل هذا التراكم الهائل في الخريطة الشعرية برزت القيمة الأدبية والفنية للقصيدة مما ميزها على مستوى الكيف والرؤية الواضحة وتنوع المشهد الشعري المغربي إذ أصبح هناك من يهتم بالغاية من اللفظة و تشكلها داخل النص باعتبارها وسيلة فقط بعدما كانت هي الغاية في حد ذاتها، كما برز من زاوج بين العمودي وشعر التفعيلة وكذا من اهتم باللغة الشعرية بغض النظر عن الأوزان فظهرت قصائد تتميز بالكثافة الشعرية مستفيدة من التراث القديم وما تتيحه التعابير النحوية والبيانية من تفاوت وتحايل على المعاني، وقد ارتبط الشعر

المغربي عموما بقضايا الإنسان وخصوصا الشعر الإسلامي والصوفي اللذين يهتمان بقضايا الأمة في ارتباطها بمصير الإنسان كما يبدو جليا في شعر حسن الأمراني ومحمد بنعمارة وغيرهما.

وقد تبلور عن هذا التنوع والتكثيف اهتمام خاص بمصير الشعر المعاصر بالمغرب مما ساهم في خلق مؤسسة (بيت الشعر المغربي) كحدث طبيعي بعد نهضة ثقافية ترجمتها مجلات وجرائد مختصة، واكبت ظهور حركة شعرية شابة سعت لتثبيت أقدامها على الساحة الشعرية. لقد تمكنت الحركة الشعرية المغربية المعاصرة من رسم معالم طريقها بوضوح إذ استطاعت خلال نصف قرن من فرض وجودها وإضفاء طابع الخصوصية ولا سيما بعدما اكتمل التأسيس لهذا الصرح على يد رواد الحركة الحديثة الذين سعوا إلى المزاوجة بين التجديد وتأصيل مفهوم الخلق والإبداع، وبذلك أصبح الشعر عبارة عن محاكاة النفس وسبر أغوارها بصيغ جديدة تلائم العصر وما يعتمل فيه من متغيرات ومستجدات، مما ركز الجهود والاهتمام حول مدى تلاؤم المفردات مع ما يختلج في النفس من صراع ومعان ...وأصبح الاهتمام باللغة الشعرية ومرونتها وكثافتها وجعلها موازية ومناسبة للتعبير عن روح العصر. وازدهرت الحركة الشعرية بشكل لافت للنظر مما جعل الاهتمام ينكب على التعريف بهذه الحركية والمساهمين فيها .

ختاما، نقول: إن الحركة الشعرية المغاربية ظلت تتراوح بين الشعر الإيديولوجي المخلص لمبادئ أصحابها الاشتراكية اليسارية منها والقومية أو الإسلامية وكذا بين البحث -سواء من قبل هؤلاء أو غيرهم- عن الصيغ الجديدة للتعبير تكون في مستوى التغيرات والتطورات الطارئة على الحياة المعاصرة المعقدة، وبرز الاتجاه الذي يرى ضرورة تحميل الشعر رسالة ذات أبعاد إنسانية (الاتجاه الصوفي والإسلامي على الخصوص).

وقد استقرت القصيدة المغاربية على أنماط مختلفة في بنيتها ومتفقة في مضمونها الإنساني الذي يجعل من قضايا الإنسان في ارتباطها بالأحداث العامة ومستجدات الحياة الغاية. وهكذا تخلص الشعر المغربي من إسار التوجه نحو الشكل وهندسته مما طبع بعض الأشعار بالجمود والتلبد الوجداني بالرغم من جماليتها إيقاعيا وتشكيليا، فالشعر المغاربي المعاصر استفاد من التجارب الشعرية الكونية، واستطاع أن يتفاعل إيجابيا معها ويطوعها للتعبير عن واقعه الراهن ومحيطه الاجتماعي المركب في ظل الحركية السريعة التي

تطبع الحياة بالعالم. وهذا ما كفل للقصيدة المغربية التحرر من كل المعايير والقيود المتحكمة في العملية الشعرية، فأضحت منفتحة على لغة الإبداع المتطورة والمنفلتة من أي انضباط لأي معيار محدد سوى الإرهاص للصوت الداخلي المتفاعل مع المحيط وفق تصور خاص بالشاعر ورؤيته الشاملة للعالم والبيئة المحيطة به، وهذه الرؤية طبعا لا تتأتى لأي كان، بل لشعراء أثروا الساحة الشعرية فنيا ودلاليا.